الرَّجُلُ الذِي تَحَدَّاني

بقلـم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

الرجل الذي تحداني. ـ الرياض.

... ص؛ ... سم

ردمك ٦ ـ ٢٦٦ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص البوليسية العربية أ ـ العنوان

ديوي ٨١٣، ٠٨٧٢ ١٧/٠٥٠٨

ردمك ٦ ـ ٢٦٦ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٧/٠٥٠٨

الطبعة الأولى ١٤١٧هـ
الطبعة الثانية - مكررة
١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

لو لم يكُن تَحَدَّى شُعُورِي لما كَان تعرَّضَ لِكُلِّ تلك المتَاعِبِ!

في أيام رمضَـان كنتُ أحِبُّ الهُروبَ من البيتِ والـذَّهَابَ إلى الصَّدِيقِ العَـزِيزِ، البحـرِ . . . كنتُ ألْقي بالسَّلَّـةِ والقَصَبَةِ من فـوقِ سَطْحِ الـدَّارِ إلى الشَّـارع، وأتعلَّقُ بـالبـابِ وأتسلَّلُ إلى الخارج . . . بهذه العمليـةِ كنتُ أحسُّ كأنِّي أسرقُ شيئـاً . . . حُريتِي مَثَلاً !

وفي البحرِ كُنْتُ أجِدُ السَّلامَ . . .

وَقَفْتُ على صخْـرَةٍ، أرمِي بصنَّارتِي وأنتظِـرُ . . كَانَ اليـوم صيفيًّـا جَميـلاً، كثيرٌ منَ الأوروبِّيينَ يَعـومـونَ . المغَـاربـةُ لاَ يَسْبَحُـونَ احترامًا لـرمضَـانَ . . ! ورغْمَ أنَّ السِّبـاحَةَ خَطَـرٌ عَلَى الصَّوم، **كَمَا قِيلَ لَنَا فِي المدْرَسَةِ**، فقد كنْتُ، بعدَ وقْفَـةٍ طويلَةٍ تحْتَ لفْحِ الشَّمسِ، أنـزِل إلى المَاءِ الأزْرَقِ البلَّـورِي حَـذِرًا ألاَّ يغْطسَ رأسي . . . فأحِـسُّ بُـرودَةَ المَاءِ في أحشـائِي لـذيـذَةً منعشَةً . . .

رأيتُ ذلِكَ الـرَّجلَ قـادمًـا نَحْوَ المينَـاءِ الـذي كنتُ أصْطَـادُ فوقَهُ، وتجاهَلْتُهُ؛ فَقَدْ تَجَمَّعَتْ جـوقَةٌ من الأطفالِ حوْلَ سَلَّتِي، يُنَقِّبـونَ بين الأسمَاكِ عن واحِـدَةٍ حيةٍ ليَضَعـوهَـا في بِـركةِ مـاءٍ قريبَةٍ، ويتفرَّجوا عليْهَا.

كنتُ في نحـو الـرَّابِعَةَ عَشْرَةَ، معتَـدِلَ الطُّـولِ، نحيفًـا منْ شِدَّةِ الجُوعِ، أفْطِرُ في الصَّباحِ وَاقِفًـا، أجْرِي إلى البَحْرِ، وأنْسَى العَـوْدَةَ للغَـدَاء... ومعَ الظُّهْـرِ أسْمَعُ غـرغَـرَةَ أمعَـائِي فأتَجاهَلُها. وقُبَيْلَ العَصْرِ يمضِي الجُوعُ.

كانَتْ أمي تُعَلِّق عَلى عَودَتِي المتَأخِّرَةِ باسْتِمْرَارٍ:

«إنَّ في البحْـرِ جِنِّيَـاتٍ يَسْتَـوْلِينَ عَلَى قُلُـوبِ الأولاَدِ. والبعضُ يذهَبْنَ بعُقُولِهِمْ!».

وجَـاءَ ذلك الـرَّجُل بمـلابسِهِ العسكـريَّـةِ، جلْبَـابٍ أخْضرَ مفْتُوحٍ من الأمَـامِ، وعلى صَدْرِهِ شِعَارُ فِـرْقَتِهِ مُطَرَّزًا بـالأصْفَرِ، عبارةٌ عن هِلاَلٍ في وسطِهِ بنـدقيةٌ ورمحانِ متقاطعانِ. وعَلَى رَأسِهِ طَربُـوشٌ أحمَرُ بدُونِ شُوشَةٍ. وفي رجْليـه حِذَاءٌ قُمَاشِيٌّ أبْيَضُ،

وقد لَـوَى على سَاقِهِ شَرِيطـاً أسْوَدَ عـريضاً يُغَطِّي ما بيْنَ الـركبَةِ والكَعْبِ، يُدْعَى «الطَّرَابِق».

كَـانَتْ جوقَـة الأطفالِ قـد ذَهَبَتْ حِينَ وَصَلَ. وقَفَ، أولاً، على صَخْـرَةٍ خَلْفِي، ثُمَّ نَـزَلَ قَلِيلاً حَتَّى صَـارَ بِمُحَـاذَاتِي عَلَى مُسْتَوَى المَاءِ، ثُمَّ لَوَى رُكْبَتَيْهِ وأقْعَى.

عَـرَفْتُـهُ حِينَ نَظَـرتُ إلَى وَجْهِـهِ الأحْمَرِ وحَـاجِبَيْـهِ الأشْهَبينِ الضَّائِعَيْنِ فِيهِ، وفَمِهِ الَّذِي لا يَنْطَبِقُ تَمَامًا.

كَـانَ يَنظُرُ إلَى البحـرِ، ثُمَّ إلى الأفُقِ، نـاحيةَ طَنجَـة، حيْثُ يكتسِي السَّـاحِلُ بضَبَابٍ رَقيقٍ، يتصـاعَدُ من الـرِّمَالِ المبتلَّـةِ، والأمْوَاجِ الدَّائِمة الانكِسَارِ عَلَى الشَّاطئِ.

ونظَـرَ حـوالَيْـهِ، ثُمَّ مَـدَّ يَـدَهُ إلى جيْبِـهِ فأخْـرَجَ عُلْبَـةَ تِبْغٍ رَخِيصٍ، أفْـرَغَ منْهَـا قَليـلاً في يَـدِهِ، ثُمَّ أغْلَقَهَـا وأعـادَهَـا إلى جَيْبِهِ. وَأخْرَجَ علْبَةً من الورقِ المقَـوَّى الأحْمر، فأخْرَجَ منْهَا ورَقَةَ لَفٍّ رَهيفَة وأعَادَهَـا إلى جيْبِهِ، ووَضَعَ التِّبْغَ وسطَ الورقَـةِ بعِنَايَةٍ كبيرَةٍ، وبَدَأَ يَلُفُّه ويَنْظُرُ إليَّ من تَحْتِ جَفْنَيْهِ...

وكنْتُ أختلِسُ النَّظَـرَ إليْهِ، وأحَـاوِل أنْ أبْـدُوَ طَبيعِيا بِقـدْرِ الإمكانِ. وفي الحقيقَةِ كُنْـتُ أنتظِرُ شَرْحًا ولَو كَـاذِبًا... مثَلاً: «الطَّبيبُ أمـرنِي بـالتَّـدخِين، الله يَعْفُو عنَّـا يـا أخِي!» كـانَتْ تكفِي لتبريرِ إحْسَاسِهِ بوجُودِي...

لم يَنطِق بكلمَةٍ!

لفَّ السِّيجـارَةَ، وألصَقَ طَـرفَهَـا بلسـانِـهِ، ثُمَّ وضَعَهَـا بيْنَ شَفَتيْهِ وَرَاحَ يَبْحَثُ في جُيُوبِهِ عَنِ الوقِيدِ.

وبَعدَ لَحْظَةٍ صَاحَ بِي:

- إيه...

قُلتُ:

- مَاذَا؟

- وقِيدٌ. أليْسَ مَعَكَ وَقِيدٌ؟

كَانَ يَشْرَحُ لِي كأنَّنِي أعْجَمِيٌّ؛ قُلْتُ:

- لاَ أدخِّن.

فنظَرَ إليَّ بحاجِبَيْنِ مرفُوعَيْنِ دُونَ أنْ يُطْبِقَ فَمَهُ، وقَالَ :

- هَا هُوَ. وجدْتُهُ.

وأخرَجَ وقيدَةً منَ العُلْبَةِ الصَّغِيرَةِ بإصْبعَيْنِ خَشِنَيْنِ، وحَكَّهَا بِجَانِبِ العُلْبَـةِ عِدَّة مَرَّاتٍ حَتَّى التَهَبَتْ، ثُمَّ وضَعَهَا بَيْنَ يـديْهِ ليحْميهَا منَ الرِّيحِ، وأدْخَلَ السِّيجَارَةَ فأشْعَلَهَـا، وبَدَأَ الدُّخَانُ يتصـاعَـدُ من بيْنِ شَفتيْـهِ ومنْخَرَيْـهِ، وهُـوَ يقْفِلُ عَيْنَـهُ اليُسْرَى ليتجنَّبُهُ. ونفَخَ على الـوقيدَةِ فأطْفأهَا، ثُمَّ وضَعَهَـا على صَخْرَةٍ بجانِبِهِ بعِنَايَةٍ، وكأنَّهُ يخشَى أنْ يَحْرقَ البَحْرَ. . .

وَرَفَعَ عيْنَيْـهِ نَحْوِي، ثمَّ أمْسَكَ بـالسِّيجَارَةِ بَيْنَ إصْبَعَيْـهِ، وبَدَأ يَنْفُثُ الـدُّخَـانَ دَوَائِرَ في الفَضَـاءِ، ثُمَّ يخرِجُـه منْ أنْفِـهِ سرِيعًـا، وبشَكْلٍ نافُـورِي، ويَنْظُرُ إلى السِّيجَـارَةِ، وينفُضُ رَمَادَهَـا بطَرَفِ بنْصرِهِ. . .

وكَمَا يُقَالُ في المَثَـلِ : «الوَاحد لاَ يُسَمَّى لِصًّـا إلاَّ حِينَ يُقبَضُ عَلَيْـهِ». كَذَلِـكَ الفَاسِق لاَ يتمتع بِفُجُـورِهِ إلاَّ حِينَ يَأتِيـهِ عَلَى مَرأى منَ النَّاس! ومنْ عمْقِ التِـذَاذِهِ بِتلْكَ السِّيجَارَةِ تَبَيَّنَ لي أنَّهُ لم يَذُقْ في حَيَاتِهِ أحْلَى منْهَا !

وحَاوَلْتُ ألاَّ أنْظُرَ إلَيْهِ. كنْتُ مَجْرُوحًا، أُحِسُّ بالألَمِ لِعَجْزِي عَنْ رَدِّ الإهانَةِ. كَانَ يُمْكِنُ أنْ يذهَبَ إلى طَرفِ المينَاءِ الآخَرِ ويفْعَلُ مَا يَشَاءُ، أو يَنْزل إلى الشَّاطئ ورَاءَ الميناءِ حَيْثُ المكانُ خَالٍ. ولكِنَّه عَمْداً اختَارَنِي ليَرى إلى أي حَدٍّ يمكنُ أنْ يثُورَ شُعُورِي تحْتَ ضَغْطِ اسْتِفْزَازِهِ الهَائِلِ... كَانَ يَتَحَدَّانِي! كُلُّ نَفَسٍ منْ تِلْكَ السِّيجَارَةِ صَفْعَةٌ لكرامَتي ودليلٌ على عَجْزِي وجُبْنِي!

يَا جَبَانُ!

وأقسَمْتُ أنْ أنتقِمَ منْهُ شَرَّ انتِقَامٍ إذا أتيحَتْ لِي الفُرصَةُ!

كُنْتُ أعْرِفُهُ. كَانَ يَسْكُنُ قَريبًا مِنْ «حَوْمَتِنَا» في غُرْفَةٍ صغيرَةٍ فَوقَ دَارِ «الحلِيمِي» حيثُ يأتي الأطفَالُ أيَّامَ «العَوَاشِرِ»[1] ويقِفُونَ عَلَى بَابِهَا يَصْرُخُونَ:

«بَاشْ تعيَّد هَاذْ المَصْرية؟

بالفراقَشْ دَ الجنِّية!»[2].

---

(١) العواشر: الأيام السابقة للأعياد.

(٢) «بماذا سيعيد أهل هذه الغرفة؟ بكوارع الجنية!».

فَيَرجُمُهم «الحلِيمِي» بحِذَائه؛ لأَنَّهُمْ يُهَرِّبُونَ الزَّبَائِنَ !

كنْتُ أَلْقَى العسْكَـريَّ كُلَّ صَبَـاحٍ في طـريقـي إلى المدرسَـةِ يُدَخِّنُ ويَسْعُلُ ذَاهِبًا إلى «القَشْلَةِ» ـ المعَسْكر ـ أو «العُش»، كمَا كَانَ يُعْرَفُ في المَدِينةِ الصَّغِيرَةِ.

وحِينَ انْتَهَى من سِيجَـارَتِـهِ وجَّـهِ لِي آخـر صَفَعَـاتِـهِ، رَمَى العَقِبَ عَلَى قَصَبَتِي في تَحَدٍّ سَـافِـرٍ، وقَـامَ يَقْفِـز على الصُّخُـورِ عَائِدًا إلى المَدِينَةِ...

كَـانَ يَـدْفَعُنِي شُعُـورٌ قَـوِيٌّ أنْ أتْبَعَـهُ، وأُهيِّجَ عَلَيْـهِ جَمَاعَـةَ الأصْحَـابِ. إنَّهُمْ هُنَـاكَ يلعَبُونَ الكُـرَةَ على الشَّـاطئِ الآخَـرِ. أسْمَعُ صِياحَهُمْ وصَدَاهُ فوقَ المِينَـاءِ الطَّوِيلِ من حِينٍ لآخرَ حينَ تَهدَأُ الأمـواجُ، وأُصيخُ بسمْعِي في لحظَـةِ الصَّمْتِ القَصِيرَةِ. ومثْلُ هَـذَا الخَبَرِ لَنْ يحتَـاجَ إلى دَلِيلٍ بينَهُمْ ! إنَّهُمْ يُصْبِحُـونَ كالصَّحَابَة بالنِّسْبَة لِكُل من يَأْتِي بِمِثْلِ هَذِهِ الأخْبَارِ السَّعيدَةِ !

ولكِنَّ السِّحْـرَ الـذي كانَ يمنَعُنِي دائِمًا منْ مغـادرَةِ مكـانِي حتَّى وأنَـا أمُـوتُ جُـوعًـا أغمَضَ عَيْني عَنْ جميعِ الإهـانَـاتِ،

وجَعَلَنِي أنسَى كُلَّ شَيءٍ، مُـركِّـزًا اهتِمَامِي على الخَيْطِ المُدَلَّى في المَاءِ، وقَدْ توجَّهَتْ جَمِيعُ أحَاسِيسِي إلى يَدِي المُمْسِكَةِ بالقَصبةِ، أنتَظِرُ الإشَـارَاتِ اللَّذِيذَةَ مِن تَحتِ المَاءِ. . . تِلْكَ الارتعـاشَاتُ الخفِيفَـةُ الآتيَةُ مـن أفْوَاهِ السَّمَكِ تَبْعَثُ نَشْـوَةً عَمِيقَـةً في نفْسِ الصيَّادِ!

وَمَعَ غُـرُوبِ الشَّمسِ عـدْتُ إلى البَيْتِ، ونَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ العَسْكَرِي المُفْطر في رَمَضَانَ. . .

* * *

ومـرَّت بضْعَـةُ أيـامٍ. . وكنْتُ في السُّـوقِ مَعَ جَمَاعَـةٍ منَ الأصْـدِقَاءِ نَتَجَـوَّلُ بِدُونِ هَـدَفٍ وَاضِحٍ، نتفرَّجُ عَلَى لُصُـوصِ «الهِنْدِي» و «الـدَّلاَّح»(*)، وقَـاطِعِي صُرَّاتِ النُّقُودِ بِشَفَـرَاتِ الحِلاقَةِ من أعنَـاقِ القَرويات وهُـمْ يُمَارِسُونَ حِرَفَهُمْ الـدَّقِيقَةَ! ومن وقتٍ لآخَـر يُضْبَطُ أحَـدُهُمْ، ويَبْـدَأُ الصُّراخُ والمُطـارَدَةُ دَاخِلَ الزِّحام. . !

(*) الهندي : التين الشوكي. والدلاّح : البطيخ.

وفَجْأةً رَأَيْتُ صَـاحِبِي العَسْكَـرِيَّ، مُفْطِـرَ رَمَضَـانَ، يَشْتَري «دَلاَّحَةً» من أحَدِ الخَضَّارِينَ دُونَ أنْ يَرَانِي . . مُهِمٌّ جِدًّا ألاَّ يَرَانِي !

التَفَتُّ إلَى الجَمَاعَةِ في الحَالِ :

- ذَلِكَ هُوَ صَاحِبِي !

- من ؟

- مُفْطِرُ رَمَضَانَ!

وأعظَمُ مغَـامـراتِ أي غُلاَمٍ في سِنِّنَـا، أيَّـامَ رَمضَـانَ، هِيَ مُصَـادَفَـةُ أحَـدِ مُفْطِـرِي رَمَضَـانَ ! وتَبِعْنَـاهُ دُونَ أنْ يَفْطِنَ إلى وُجُودِنَـا . . . مُهم ألاَّ يفْطِنَ . كَانَ الوَقْتُ ظُهْـرًا، والجَوُّ حَارًّا . مُجَرَّدُ تخيلِ قطْعَـةِ دَلاَّحٍ حمْرَاءَ بَـارِدَةٍ يسري مَـاؤهَـا الشَّهِيُّ في الحُلْقُومِ في ذَلِكَ الجَوِّ القَائِظِ الجَافِّ يُسِيلُ اللُّعَاب . . .

ونَـزَلَ الـرَّجُلُ من بَـابِ البَحْـرِ، و«الدَّلاَّحَـةُ» تحتَ جلْبَـابِـهِ كـالصَّبِي؛ مشَى عَلَى الرَّمْلِ، ثُمَّ صَعِـدَ المِينَـاءَ الطَّوِيلَ الـذِي يَـدْخُل البَحْرَ ويميل إلى اليَمِينِ مثْلَ «حَـرْفِ الكَاف»، نِصْفُـهُ الأعلى دَاخِلَ الماء .

ونَظَرَ حَـوَاليْهِ في جَمِيعِ الاتِّجَاهَـاتِ . . لاَ شَيءَ غَيْرُ عَادِي . . أكْـوَامٌ مِن الصِّغَارِ في كُلِّ مَكَـانٍ عَلَى سَـاحَةِ الـرَّمْلِ الشَّاسِعَـةِ الأطْرَافِ يَلْعَبُونَ كُرَةَ القَدَمِ . فِرَقٌ عَديدَةٌ منْهُمْ حَسب الفُصُولِ في المَدَارِسِ ، وكُلُّهُم ينْظُـرُونَ إلى الأرْضِ ، بَحْثًـا عن كُـرَاتِ مضْربٍ في حَجْمِ البُرْتُقَالِ بَيْنَ الرِّمَالِ !

وَرَاقَبْنَـاهُ نَحْنُ من بعيدٍ ، مَشَى عَلَى مَهَلٍ ، حَتَّى وَصَلَ آخِـرَ المِينَـاءِ ، حَيْثُ جَلَسَ متَّجِهًـا نَحْوَ المُحِيطِ الـوَاسِعِ ، وَظَهْـرُهُ إلى المَدِينَةِ .

وهنَا انطَلَقَـتِ الصَّيْحَةُ المُهَيِّجَةُ . . ! الصَّيحَـةُ التِي لاَ يُمْكِنُ أن يَتَجَاهَلَهَا أو يقاوِمَهَا غُلاَمٌ :

«هَا ـ وكَّال رمَضَان ! هَا ـ مْضَيَّع الإيمَان !»

كلمَاتٌ كـالمغنـاطِيسِ في مفْعُـولِهَا الجَذَّاب للصغـار! كـانُـوا يخرجُونَ من تَحْتِ تخْدِيرِ الكُـرَةِ سريعًا حِينَ يَسْمَعُونَهَا ، ويَبْدأونَ في البحْثِ حَـوَاليهِم عَن مَـوادَّ طيَّـارَةٍ تصْلُحُ للـرَّجْمِ ، ثُمَّ ينضمُّونَ إلى الهاتفِينَ وقـد امتَلأتْ حجُورهُم وأقبابهُم بـالحِجَارَةِ والأخْشَـابِ وقِطَـعِ الفِلِّين التِي كـانَتْ تتبقى مـن رَافِعـاتِ الشِّباك . . .

ولم تَمضِ بِضْعُ دقائِقَ حَتَّى كَانَ مَا يُعادِلُ نِصْفَ سُكَّانِ المدينَةِ من الأطفَالِ يَتحرَّكون بغريزَةِ الجَرَادِ نحْوَ هَدَفٍ وَاحدٍ . . . العَسْكَرِي!

«هَا ـ وكَّال رمضَان ! هَا ـ مْضَيَّع الإيمَان !» .

كَانَتْ تَعْلُو كُلَّمَا انْضَمَّتْ فِرْقَةٌ إلى الجَيْشِ العَرَمْرَمِ فَوقَ المِيناءِ، حتَّى ضاقَ بِهِمْ، وثَقُلَ بمصْطَبَتَيْهِ العُلْيَا والسُّفلى، ودقَّتِ الأورَازُ(*) اليَابِسَةُ عَلَى الأرضِ كَحَوَافِرِ الخيل، وعَلَتِ الأصْوَاتُ حَتَّى كَادَت السَّمَاءُ تَقَعُ، والرَّجل مَا يَزَالُ مُديرًا ظَهْرَهُ للعَالَمِ الذِي أخَذَ يَنْهَارُ !

كَانَ قَدْ فَلَقَ الدَّلاَّحَة، وبَدَأ يغرِزُ أسْنَانَهُ في أطْرَافِهَا الحَمْرَاءِ، ملْتَذًّا بالفاكِهَةِ المُحَرَّمَة التي لم يكُن يعْرِفُ أنَّهَا سَتُخْرِجُهُ قَريبًا منَ الجَنَّةِ!

وبإحْسَاسٍ غَرِيزِي التَفَتَ ليُؤكِّدَ شُعُورَهُ بالخَطَرِ. فَاتَ الأوَانُ . . ! الفَتِيلُ بَلَغَ نِهَايَتَهُ، وشَظَايَا القُنْبُلَةِ فِي طَرِيقِهَا إلَيْهِ . . !

وكُنْتُ أطْحَنُ كَبِدِي وأنَا أعْدُو، وأحَاوِلُ ألاَّ أسْقُطَ في البَحْرِ، حَتَّى أسْبقَ الكِبَارَ إلَيْهِ، وأكونَ في المُقَدَّمَةِ لِيَرَانِي . . .

(*) جمع وَرِز: مؤخرة القدم.

نَظْرَةُ رُعْبٍ وَاحِـدَةٌ عَلَى وَجْهِهِ . . . نَظْرَةُ اسْتِعْطَـافٍ وَاحِدَةٌ في عَيْنَيْـهِ نحـوي كَانَتْ تَشْفِي تِلْـكَ الجُرُوحَ العَمِيقَةَ التي تَـرَكَتْهَـا إهَانَتُهُ وحُرْقَةُ سِيجَارَتِهِ يومَ الخَمِيسِ المَاضِي!

وبَـدَأتِ الحِجَارَةُ تَتَطَـايَرُ من فَـوْقُ . . . اليَائِسُـونَ مِن السَّبْقِ بَدَأوا يَضْرِبُونَ بِهَا حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ فضْلُ السَّبق! وَوَقَفَ هُوَ. . .

لم أرَ رَجُلاً في حيـاتِي يَرْفُضُ أنْ يَمُـوتَ بِذَلِكَ الارْتِبَـاكِ! بَدَأَ يَبْحَثُ حَـوَالَيْهِ عن شَيءٍ يُـدَافِعُ بِهِ عَنْ نَفْسِـهِ . . . لاَ شَيءَ غَيْر قُشُـورِ الدَّلاَّحِ وأطْـرَافِـهِ . . . بدَأَ يَـرْمِينَـا بِهَا في يَأسٍ! ثُمَّ فَتَحَ المُوسَى الذِي كَانَ يَقْطَعُ بِهِ، وَوَقَفَ فَاتِحًا سَاقَيْهِ لاسْتِقْبَالِنَا . . . ثُمَّ عَادَ يَخْتَبِئُ خلفَ سَـاعِديْـهِ مِنْ أمْطَارِ الحِجَارَةِ الـوَاقِعَةِ على كُلِّ بُقْعَةٍ في بدَنِهِ . . !

وبَدَأَ يَصِيحُ ويستَغيثُ . . ثُمَّ انْحَنَى وَقَعَدَ القُـرفصاءَ ليصَغِّرَ المسـاحةَ البـدنيَّـةَ التي يَقَعُ عليْهَا الـرجمُ . . . وأخيرًا تَمَدَّدَ على الأرْضِ وتلَوَّى واضْطَرَبَ، وكأنَّ الجِنَّ تَعَـاوَرَتْهُ . . . وَلَمْ يَشْفَعْ لَهُ ذَلِكَ، فالشُّهُبُ ما زالَتْ مُسْتَمرَّةً . . .

وفي النِّهايَـةِ قامَ بسرعَـةٍ، ورَمَى بنفسِهِ في البَحْـرِ. . . وَوَقَفْنَا نحنُ على رَأس المِينَاءِ نَتَفرَّجُ عَلَيْهِ وهُـوَ يُغَالِبُ الأمواجَ في منطقةٍ صعبَـةٍ، البَحْرُ دَائمًا فيهَـا شرِّيرٌ مخَاتِلٌ. . . سبَحَ دَاخِلَ شَـلاَّلٍ مِنَ الحِجَارَةِ حَتَّى ابْتَعَـدَ عَنْ مَرْمَانَا جَمِيعًا، وسَبـحَ قَاصِدًا رأسَ المِينَاءِ المُقَـابِلِ لهذَا. كَانَتِ المسـافَةُ لاَ تَزِيـدُ على ربْع كِيلُو مِتْرٍ، ولكِنَّ تكَسُّرَ الأمواجِ وشِدَّةَ التَّيارِ وثِقـلَ الملابِسِ جعَلَهَا مَسَافَةً بَعِيدَةً مُرْهِقَةً. . .

وَكافَحَ حَتَّى انْقَطَعَتْ أنْفَاسُهُ. . . وَلا بُـدَّ أنَّهُ أثْنَاءَ مِحْنَتِهِ نَذَرَ أنْ يَصُومَ الدَّهْرَ لَو نَجَّاهُ اللهُ مِن هَذِهِ !

وَبَعْـدَ جِهَادٍ طَـوِيلٍ أمْسَكَ بأوَّلِ صَخْـرَةٍ في المِينَاءِ الآخـرِ، فَتَعَلَّقَ بِهَا يَلْهَثُ ويَسْتَرِيحُ. . . ثُمَّ صَعِدَ فَـوقَهَا واسْتَلْقَى، وقَد اسْتَرخَتْ أعْصَابُهُ، وَعَادَ النِّظَامُ إلى أنْفَاسِهِ المَبْهُورَةِ. . .

وَبَعْدَ بِضْعِ دَقَائِقَ وَقَفَ يَخْلَعُ مَـلاَبِسَهُ ويعْصِرُهَا، ثُمَّ يَنْشُرُهَا فوقَ الصُّخُـورِ حَتَّى بَقِي في قَمِيصِهِ الدَّاخِلِي، وإذا بـالأصْوَاتِ تَرْتَفِعُ فَجْأَةً منْ خَلْفِهِ !

كَانَ الجَيْشُ المتطوِّعُ قدْ وَصَلَ إلى رأْسِ المينَاءِ الآخرِ . . .

وَبَدَأتِ الأحجَـارُ تتَطَايَـرُ، مَرَّةً أخْـرَى، في اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ . . .

العسْكَرِي مفطر رمضان !

سُؤالٌ : «هَلْ قَفَزَ العَسْكَرِيُّ إلى المَاءِ مَرَّةً أخْرَى ؟» .

جوابٌ : «بكُلِّ تَأْكِيدٍ !»

قصَدَ رأْسَ نَفـسِ المِينَاءِ الذِي جَـاءَ مِنْهُ، وَعَـادَ نَفْسُ الجَيْشِ الجَرَّارِ لِيَكُونَ في اسْتِقْبَالِهِ هُنَاكَ !